تفسير

سورة التوبة

كاملة بأسلوب سهل جداً

رامي حنفي محمود

الألوكة
www.alukah.net

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ [١]

(تفسير سورة التوبة بأسلوب بسيط جداً)

١. الربع الأول من سورة التوبة

الآية ١، والآية ٢: ﴿بَرَاءَةٌ﴾: يعني هذه براءةٌ ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِتُبَلِّغوها أيها المسلمون ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فهي قد نزلتْ للتبرُّؤ من العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين.

♦ ثم أعطى اللهُ المشركين إمهالاً بقوله: ﴿فَسِيحُوا﴾: أي فسيروا أيها المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (تبدأ هذه الأشهر من يوم الإعلان عن ذلك التبرُّؤ)، تذهبون فيها حيثُ شئتم آمِنين من المؤمنين، فإنْ أسلمتم فهو خيرٌ لكم، وإن خَرجتم من أرض الجزيرة العربية: فإنّ ذلك مُباحٌ لكم، وإن أصْررتم على شِرككم: فسوف تؤخَذون وتُقتَلون حيثما وُجِدتم في أرض الجزيرة العربية، التي أصبحت دارَ إسلامٍ بعد فَتح مكة، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لن تُفْلِتوا من عذابه أبداً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾: أي واعلموا أنَّ اللهَ سوف يُذِلُّ الكافرين ويُهينهم في الدنيا والآخرة.

♦ واعلم أنّ هذه الآيات تَخُصّ المشركين أصحاب العهود الأبدية (أي التي ليست مُحَدَّدة بِمُدَّة)، أو مَن كان له عهد مُحَدَّد بِمُدَّة ولكنه نَقَضه، (وأمّا مَن كان له عهد مُحَدَّد بِمُدَّة ولم يَنقضه: فسيأتي حُكمه في الآية الرابعة من هذه السورة).

♦ واعلم أيضاً أنّ هذه هي السورة الوحيدة التي لم تبدأ بـــ (بسم الله الرحمن الرحيم)، لأنها مُفتَتَحة بآيات عذاب للمشركين، وبالتالي يَتعارض معها ذِكْر الرحمة، (وهي مِن آخِر السور التي نزلتْ من القرآن الكريم).

---

[1] وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

الآية ٣، والآية ٤: ﴿وَأَذَانٌ﴾ يعني: وهذا إعلامٌ ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وإعلانٌ ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ (وهو يوم النحر، الذي هو أول أيام عيد الأضحى)، حين أمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم مُؤَذِّنَهُ – وقتَ اجتماع الناس في الحج – أن يُؤَذِّنَ بـــ ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فليس لهم عنده عهدٌ ومِيثاق، ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بريءٌ منهم كذلك، ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون مِن شِرككم ورجعتم إلى الحق: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: يعني وإن أعرضتم عن قَبول الحق ورفضتم الدخول في دين الله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لن تُفْلِتوا من عذابه أبداً، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

♦ ثم استثنى سبحانه - من الحُكم السابق – المشركين الذين دخلوا مع المسلمين في عهد مُحَدَّد بمُدَّة، ولم يَنقضوا ذلك العهد، ولم يُعاونوا عليهم أحداً من الأعداء، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ – مِن شروط هذه المُعاهَدة – ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ يعني لم يُعاونوا عليكم أحداً من الأعداء (لا برجال ولا بسلاح ولا حتى بمَشورةٍ ورأي)، فهؤلاء لم يَبرأ الله ورسوله مِن عهودهم، ولهذا ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾: أي فعليكم أن تُكمِلوا لهؤلاء المشركين عَهْدهم إلى نهايته المحددة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يُوفون بعهودهم، (وفي الآيات دليلٌ على تحريم الغدر والخيانة، ولِذا كان إلغاء المُعاهَدات عَلَنِيًّا، وكانَ إمدادُ أصحابها بمُدَّة ثُلث سَنة لِيُفكِّروا في أمْرهم، ولِيَطلبوا الأصلح لهم).

♦ وقد اختلف العلماء في سبب تسمية هذا الحج بـــ (الأكبر)، وأحْسن الأقوال في ذلك: (أنه حَجٌّ حَضَره الرسول صلى الله عليه وسلم، وحَضَرَه أكبر عدد من المسلمين في ذلك العام).

الآية ٥: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾: يعني فإذا انتهتْ الأشهر الأربعة التي أمَّنتم فيها المشركين، ولم يَرجعوا عن شِركهم: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: أي فأعلِنوا الحرب على أعداء الله حيثُ كانوا، وذلك تطهيراً لأرض الجزيرة العربية مِن بقايا الشِرك والمشركين، قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسْرَى، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾: أي حاصِروهم في حصونهم، ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: أي سدُّوا عليهم الطرق، وارصدوا تحركاتهم حتى يُقَدِّموا لكم أنفسهم مُسلمين أو مُستسلمين، ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشِرك ومِن حَربكم، ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي فاتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن تاب إليه، ﴿رَحِيمٌ﴾ به.

♦ واعلم أنّ قَتْل المشركين مَخصوص بالمشركين المُحارِبين المعتدين، أمَّا المُسالِمون فلا يُقتَلون؛ لِقوْل الله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، وكذلك المُشرِك المُعاهَد والمُستأمَن في أوطاننا فلا يُقتَل؛ لِقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَن قتلَ مُعاهَداً لم يرحْ رائحة الجنة، وإنَّ رِيحها لَيُوجَد مِن مَسيرة أربعين عاماً) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٦٤٥٧)، واعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد نَهَى عن قتل المرأة والصبي والراهب والمريض والشيخ الكبير.

الآية ٦: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي أراد الدخول في جوارك (يعني في حمايتك) ورَغَبَ في الأمان: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: أي فأجِبْهُ إلى طَلَبِه حتى يَسمع القرآن الكريم ويَطَّلِع على هدايته، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾: يعني ثم أَعِدْه مِن حيثُ أتى آمِنًا؛ وذلك لإقامة الحُجَّةِ عليه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: أي وقد أمَرَكَ اللهُ بتلك الحماية بسبب أنَّ الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَعلمون ما يَحتوي عليه القرآن من الإرشاد والهُدَى، فربما اختاروا الإسلام إذا زالَ عنهم ذلك الجهل، فإنهم لو عَلِموا حقيقة الإسلام، ما انصرفوا عن التوحيد إلى الشرك (فإذا كانَ ذلك في حق المشركين، فإنه مِن بابِ أوْلَى: تعليم المسلمين وعُذرهم بجَهْلهم وعدم تكفيرهم) (وفي الآية دليل على وجوب تأمين مَن طَلَبَ حماية المسلمين، ويَدخل في ذلك: تأمين (السُّيَّاح)، والسُّفَراء، والمُمَثلين للدول الكافرة).

الآية ٧: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ (هذا الاستفهام للنفي مع التعجب)، أي لا ينبغي أن يكون للمشركين عهدٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ – وهُم يُخْفُون في أنفسهم نِيَّة الغدر بكم - ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في صُلح الحُدَيْبِيَة ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾: يعني فهؤلاء ما داموا مُقيمين على الوفاء بعهدكم: ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على عهدهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ المُوفِّين بالعهود.

الآية ٨: ﴿كَيْفَ﴾ يكونُ للمشركين عهدٌ يُوفونَ به لكم وهم – مِن شأنهم – أنهم يَلتزمون بالعهود ما دامت الغَلَبَة لغيرهم، ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: يعني وأمَّا إن شَعَروا بالقوةِ عليكم: لا يَرحموكم، و﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾: يعني لا يُراعوا فيكم قَرابةً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾: أي ولا يُراعوا العهد الذي بينكم وبينهم، بل يُذيقونكم أشد العذاب، فلا تخدعكم حُسنُ معاملتهم لكم وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: أي يقولون لكم كلامًا لطيفاً بألسنتهم؛ لِترضوا عنهم، ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾: يعني ولكنّ قلوبهم ترفض الإقرار بذلك الكلام الذي يقولونه لكم بألسنتهم، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي متمردون على الإسلام، ناقضونَ للعهد.

الآية ٩، والآية ١٠: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: يعني إنَّ هؤلاء المشركون قد استبدلوا بآيات الله تعالى متاعَ الدنيا الزائل، فاختاروا الحَظ العاجل الخَسيس على الانقياد لآيات ربهم ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾: أي فلذلك أعرضوا

عن الحق، ومنعوا الراغبين في الإسلام عن الدخول فيه، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ أي قَبُحَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: أي لا يُراعون في مؤمنٍ قَرابةً ولا عهداً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

الآية ١١: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن عبادة غير الله تعالى، ونطقوا بكلمة التوحيد ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: أي وكذلك نُبيِّن الآيات ونُوَضِّحُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمونَ الحق – لِوُضوحه وظهور علاماته – فيَقبلونه ويَتَّبِعونه، ولا يَتَّبعون أهوائهم.

الآية ١٢: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾: يعني وإنْ نَقَضَ – هؤلاء المشركون – العهود التي بينكم وبينهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾: أي وأظهروا الطعن في دين الإسلام، فهم إذاً أئِمَّة الكُفر ورؤساء الضلال ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ولا تُراعوا لهم أَيْماناً حَلَفوها لكم فـ ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي لا عهد لهم –، فقاتِلوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ عن كُفرهم وعداوتهم للإسلام.

الآية ١٣: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾: يعني لِماذا تترددون في قتال هؤلاء الكفار الذين ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي نقضوا عهودهم معكم، ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أي وأرادوا إخراج الرسول من مكة، ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: يعني وهم الذين بدؤوا بإيذائكم أوّل الأمر (عند بداية الدعوة إلى الإسلام)، وهم الذين بدؤوا بنقض العهد معكم عندما تقاتلت خُزاعة (وهم حُلفاء النبي صلى الله عليه وسلم) مع بني بكر (وهم حُلفاء قريش)، فأعانت قريش حُلفاءها، فبهذا نقضتْ عَهْدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلِمَ لا تقاتلوهم إذاً؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: يعني أتخافون ملاقاتهم في الحرب؟ إذا كان هذا هو السبب ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ ما عِندَ الله تعالى من العذاب ليس عند المشركين، فهو سبحانه لا يُعَذِّبُ عذابَهُ أحد.

الآية ١٤، والآية ١٥: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾: أي يُذِلُّهم بالهزيمة ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: يعني ويَشفِ – بهزيمتهم – صدوركم التي طالما أصابها الحزن والغم مِن كيد هؤلاء المشركين، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالإسلام (بسبب انتصاركم عليهم)، لأنّ الناس إذا رأوا انتصار أعدائهم عليهم في كل معركة: فإنهم يَميلون إليهم، ويَقبلون دِينهم وما هم عليه مِن صفاتٍ حميدة، (فقِتال المؤمنين للكافرين وانتصارهم عليهم يُتيح الفرصة لكثير من الكافرين أن يُسلموا)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بصِدق توبة التائب، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وصُنعِه ووَضْع تشريعاته لعباده.

الآية ١٦: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ - أيها المسلمونَ – دونَ أن تُبْتَلُوا بالتكاليف الشاقة كالجهاد، وقد اختلط المؤمن الصادق منكم بالمنافق الكاذب؟ (وهذا الاستفهام للاستنكار) يعني ولابُدَّ أن تُبتَلوا بذلك ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: يعني وذلك حتى يَعلم اللهُ - عِلماً ظاهراً للخلق - الذين جاهدوا منكم في سبيله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: ولم يَتخذوا أولياء – يُطلِعونهم على أسراركم – غير الله ورسوله والمؤمنين، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومُجازيكم على أعمالكم .

****

٢. الربع الثاني من سورة التوبة

الآية ١٧: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾: يعني ليس مِن شأن المشركين – ولا يَصِحّ منهم – إعمار بيوت الله تعالى ببنائها وصيانتها وتنظيفها، وهم يُعلنون كُفرهم بالله ويجعلون له شركاء، (قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم بالكُفر هي سجودهم للأصنام، مع إقرارهم بأنها مخلوقة والله خالقها)، ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بَطُلَتْ وضاعت يوم القيامة، لِفَقْدِها شَرط الإخلاص لله تعالى، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

♦ واعلم أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ أحد المشركين قد ادَّعَى أنه يَعمُرُ المسجد الحرام بسقاية الحَجيج وغير ذلك، فأبْطَلَ اللهُ تعالى هذا الادِّعاء بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾.

الآية ١٨: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ حقاً: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: وهؤلاء العُمَّار هم المهتدون إلى طريق النجاة من النار والفوز بالجنة (لأنّ كلمة: (عسى) إذا جاءت من الله تعالى، فإنها تفيد التأكيد ووجوب الوقوع).

♦ فإذا قال قائل: (قوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يَدل على أنّ المؤمن – الكامل الإيمان – لا يَخشى إلا الله، فكيف ذلك والأنبياء كانوا يَخشون أعداءهم وهم أكْمَلُ الناس إيماناً؟).

♦ والجواب الصحيح أنّ الأنبياء والمؤمنين العاملين لا يَخشون إلا الله تعالى، فإذا خافوا عَدُوًّا، ليس معناه أنهم خافوهُ لِذاته، وإنما خافوا مِن أن يكون اللهُ تعالى قد سَلَّطَهُ عليهم، فخَوْفهم في الحقيقة عائدٌ إلى الله تعالى، إذ هو الذي بيده الأمر، وكذلك فإنّ الخوف من العدو هو ما يُسَمّى بالخوف الفِطري (كخوف موسى عليه السلام عندما تحولت العصا إلى ثعبان وغير ذلك).

الآية ١٩: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ - أيها المشركون - ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ – وهو مكانٌ يُوضَع فيه الماء في المسجد الحرام، ويُسقَى منه الحَجيج مجاناً –، ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي بنائه وصيانته وتطهيره، أجعلتم مَن يَقومُ بذلك ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (لأنّ الله لا يَقبل عملاً بغير إيمان)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين، فلا يَهديهم إلى طريق كمالهم وسعادتهم وهو الإسلام.

الآية ٢٠، والآية ٢١، والآية ٢٢: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لإعلاء كَلِمَتِهِ سبحانه، أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِمَّن آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (هذا اللفظ للمبالغة في عِظَم فوزهم، حتى إنّ فوْزَ غيرهم – من المؤمنين الذين لم يهاجروا – بالنسبة إلى فوزهم يُعَدّ كالمعدوم)، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ لا سخطَ بعده أبداً، ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمَن آمَنَ وعمل صالحاً وامتثل أوامره واجتنب نواهيه.

الآية ٢٣: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ – بالمَحبة والنُصرة وبإفشاء أسرار المسلمين إليهم، وباستشارتهم في أموركم – ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ واختاروه ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يَضعون الشيء في غير مَوضعه، لأن المَحبة والنُصرة لا تكونُ إلا للمؤمنين.

الآية ٢٤: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – للمؤمنين: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ - والعشيرة هم الأقرباء من النَسَب، كالأعمام وأبنائهم - ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي جمعتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون قلة بَيْعها في الأسواق (بسبب مقاطعة كثير من التجار المشركين لكم، وبانقطاعكم عن التجارة أيام الجهاد)، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ وهي البيوت الفاخرة التي أقمتم فيها، إنْ كانَ ذلك كله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فتركتم الهجرة والجهاد من أجل تلك الأشياء: فأنتم فاسقونَ ظالمون ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾: أي فانتظروا عقوبة هذه المعصية – إن لم تتوبوا عن ذلك فتهاجروا وتجاهدوا - ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

♦ وعلى هذا فإذا حصل التعارض بين ما أراده اللهُ تعالى وبين ما تحبه نفس المؤمن: وَجَبَ على المؤمن التخلص منها وإرضاء ربه.

الآية ٢٥، والآية ٢٦، والآية ٢٧: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي في مواقع كثيرة (عندما أخذتم بالأسباب واعتمدتم على اللهِ تعالى)، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: يعني وخاصةً في غزوة حُنَيْن ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (لأنّ

جيش المسلمين كان اثني عشر ألفاً، وكان عَدُوُّهم أربعة آلاف فقط)، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾: أي فلم تنفعكم هذه الكثرة، بسبب غروركم واعتمادكم على الأسباب دونَ الاعتماد على نَصْر ربكم، فظَهَرَ عليكم العدو، وانهزمتم في أول اللقاء، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي لم تجدوا مكاناً تهربون إليه في الأرض الواسعة، كأنكم مَحصورون في مكان ضيق، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾: يعني ثم فرَرْتم مُنهزمين، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي أنزل الطمأنينة والثبات ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فثَبَتوا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا النبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المُطَّلِب، اللهم نَزِّل نَصْرك"، فاستجابَ اللهُ دعائه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة، فنَصَرَكم على عدوكم، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأيديكم وأيدي الملائكة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من المشركين الذين بَقوا أحياء بعد الحرب، فيُدخِلهم في الإسلام ويَغفر ذنوبهم، ويَرحمهم بدخول الجنة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الآية ٢٨: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي أصحابُ نجاسة معنوية (وذلك لِخُبث أرواحهم بالشِرك)، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: أي فلا تُمَكِّنُوهم من الاقتراب من الحَرَم بعد هذا العام (وهو العام التاسع من الهجرة، أو عام حجة الوداع – على خِلافٍ بين المفسرين)، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: يعني وإن خِفتم فقرًا لانقطاع تجارتهم عنكم: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويُعَوِّضكم عن هذه التجارة ﴿إِنْ شَاءَ﴾ سبحانه ذلك (واعلم أنّ هذا الاستثناء منه سبحانه حتى تَبقى قلوب المؤمنين متعلقةً بربها، راجيةً فضله، خائفةً مِن زَوال نعمته وتَحوُّل عافيته، غيرَ غافلةٍ عن طاعته وتقواه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤونكم، فلا يَضع سبحانه شيئاً إلا في مَوضعه (وفي ذلك إرشادٌ لمن أراد فَضْلَ اللهِ تعالى ورحمته: أن يجتهد في أن يكون أهْلاً لذلك بالإيمان والطاعة).

الآية ٢٩: ﴿قَاتِلُوا﴾ الكفار المُحاربين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً صحيحاً يَرضاهُ اللهُ تعالى، ويُنجي صاحبه من عذاب الله (كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم) ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كالخمر والربا وسائر المُحرَّمات ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾: أي والذين لا يَلتزمون بأحكام الإسلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾: أي حتى يَدفعوا الجِزْيَةَ التي تفرضونها عليهم (واعلم أنّ الجِزْيَة هي قَدْر مالي مُحَدَّد يَدفعه أهل الكتاب لِوُلاة أمور المسلمين في كل سَنَة مقابل حمايتهم)، فإنّ الإسلام يُعرَضُ أولاً على أهل الكتاب، فإنْ قَبلوه: فهو خيرٌ لهم في دُنياهم وأُخراهُم، وإن رفضوه: يُطلَبُ منهم الدخول في حماية المسلمين تحت شعار: الجِزْيَة، وهي رَمزٌ دالّ على قبولهم لحماية المسلمين، فإذا دفعوها: حَقَنوا دماءهم، وحَفظوا أموالهم، وأمِنوا في حياتهم وكنائسهم.

♦ وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: أي يُقدموها بأيديهم، لا يُنيبون فيها غيرهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أي وهم خاضعون لِحُكم الإسلام، (وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: (عَنْ يَدٍ) أي يكون قادراً على دفع الجزية (لِغِناهُ وعدم فقره)، لأنّ الفقير منهم لا يُطالَب بالجِزْيَة، واللهُ أعلم).

الآية ٣٠: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ - واعلم أنّ عُزَيْر: هو الذي أماته اللهُ مائة عامٍ ثم بَعَثه -، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (فقد أشْرَكَ مَن قال هذا القول منهم، لأنهم اتخذوا إلهاً يَعبدونه مع الله)، وقد كَذَبوا على الله تعالى فيما نسبوه إليه، لأنّ ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: يعني لأنّ هذا القول قد اختلقوه مِن عند أنفسهم وما أنزل اللهُ به مِن دليل، وهم بذلك ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾: أي يُشابهون قول المشركين مِن قبلهم، وهم العرب الذين قالوا: (الملائكة بنات الله)، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيراً، و﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: أي لَعَنَ اللهُ المشركين جميعًا، كيف يَنصرفون عن الحق إلى الباطل، رغم وضوح الحق وقوَّة أدِلَّته؟!

♦ واعلم أنّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، المقصود به: بعض اليهود الذين قالوا هذا القول وليس كل اليهود، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ (فهو لفظ عام، والمقصود به بعض الناس).

الآية ٣١: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي اتخذ اليهودُ والنصارَى علماءَهم وعُبَّادَهم آلهةً ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يُشَرِّعون لهم الأحكام، فيَلتزمون بها ويتركون شرائع الله تعالى، ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: أي واتخذ النصارَى المسيح عيسى ابن مريم إلهًا فعَبَدوه، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: أي وقد أمَرَهم اللهُ بعبادته وحده دونَ غيره، فهو الإله الحق الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الذي لا يَستحق العبادة إلا هو ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تَنزَّه وتَقدَّسَ عَمَّا يَفتريه أهل الشِرك والضَلال.

الآية ٣٢: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: أي يريد هؤلاء الكفار - بتكذيبهم - أن يُبطِلوا دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾: يعني ولن يَقبلَ اللهُ تعالى إلا أن يُتِمَّ دينه ويُعلِيَ كلمته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

الآية ٣٣: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: أي بالقرآن ودين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: أي لِيُعلِيَهُ على الأديان كلها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

♦ وقد حَقَّقَ سبحانه وعده، فالإسلامُ ظاهرٌ في الأرض كلها، سَمِعَ به أهل الشرق والغرب، واعتنقه كثيرٌ منهم، وخَضَعَ له العالم أجْمَع على عهد الصحابة والتابعين، وسيأتي اليوم الذي يَسُودُ فيه الإسلامُ أهلَ الدنيا جميعاً.

٣. الربع الثالث من سورة التوبة

الآية ٣٤، والآية ٣٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ – وهم علماء أهل الكتاب– ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ – وهم عُبَّاد أهل الكتاب –: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾: أي لَيَأخذون أموال الناس بغير حق (كالرِّشوة وغيرها)، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي يَمنعون الناس عن الدخول في الإسلام، وذلك للإبقاء على مَناصبهم الدينية التي يَترأَّسُونَ بها على العَوام من اليهود والنصارى، ويأكلون أموالهم باسم الدين.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: والذين يَجمعون الذهب والفضة وغير ذلك من الأموال ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يعني ولا يُؤدون زكاة أموالهم، وكذلك يَبخلون بإخراج الحقوق الواجبة منها: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: يعني يوم تُوضَع قطع الذهب والفضة في النار، حتى تشتد حرارتها ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾: أي فتُحرَق بها جِبَاه أصحابها ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويُقالُ لهم توبيخًا – وهم يُعَذَّبون –: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾: أي هذا مالُكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوقَ الله تعالى ﴿فَذُوقُوا﴾ العذابَ الشديدَ جزاءً بـــ ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (واعلم أنّ هذا التوبيخ أثناء العذاب: يكون أشد على النفس من عذاب الجسد).

♦ واعلم أنّ هذا الحُكم (وهو إمساك الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله) هو حُكمٌ عام يشمل الأحبار والرُّهبان وغيرهم، إلا إنه تعالى ذَكَرَ هذا الحُكم بعد أن ذَكَرَ الأحبار والرُّهبان، لأنّ مَن يأكل أموال الناس بالباطل هو أقرب الناس إلى أن يَكنِز الذهب والفضة ولا يُنفقها في سبيل الله.

الآية ٣٦: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾: يعني إنّ عدد الشهور في حُكم الله تعالى: ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وذلك ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي فيما كَتَبَهُ اللهُ في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ أي مِن هذه الأشهر: ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (أي حَرَّم اللهُ فيهنَّ القتال، لتكون هُدنة للعرب، يَتمكنون معها من السفر للتجارة والحج ولا يخافون أحداً) (وهذه الأشهر هي: ذو القعدة وذو الحِجَّة والمُحَرَّم ورجب)، ﴿ذَلِكَ﴾ - أي عدد الشهور، وتقسيمها إلى حُرُمٍ وغير ذلك – هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي ذلك هو الشرع المستقيم الذي لا اعوجاجَ فيه، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فلا تعصوا اللهَ في هذه الأشهر (بسبب حُرْمَتِها عند الله تعالى، ولِكَوْن المعصية في هذه الأشهر أشد منها في غيرها)، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾: أي وقاتِلوا المشركين جميعًا لا يَتخلف منكم أحد (فكما هم يقاتلونكم مجتمعين: فاجتمِعوا أنتم على قتالهم)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتَقَوا الشِرك والمعاصي، فيَنصرهم سبحانه على المشركين العُصاة.

الآية ٣٧: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ وهو ما كانت تفعله العرب في الجاهلية – إذا أرادوا القتال في أحد الأشهر الحُرُم –، فإنهم كانوا يَختارون شهراً آخر من السَنة، فيُحَرِّمون القتالَ فيه، ثم يُقاتلون في الشهر الذي حَرَّمَه الله، إنّ ذلك ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾: أي يُضِلّ الشيطانُ بِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾: أي يَستحلون الشهر المُحَرَّم عامًا (فيجعلونه حلالًا ليتمكنوا من القتال فيه)، ثم يعودون فيُحَرِّمونه في العام الذي يَليه (فلا يُقاتلون فيه).

♦ واعلم أنهم كانوا إذا أحَلُّوا شهرًا من الأشهر الحُرُم: حَرَّموا شهرًا مكانه من الحلال (حتى يجعلوا عدد الأشهر الحُرُم أربعة كما حَرَّمَ الله)، وذلك ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي حتى يُوافقوا الأشهر الحُرُم في العدد لا في الحُكم ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي فبذلك قد استحَلُّوا القتال في شهرٍ حَرَّمَهُ الله، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾: أي زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم السيئة، فجعلهم يَظنون أنهم بذلك ما عَصَوا الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى الحق والصواب.

♦ وفي هذا تحذيرٌ لِمَن يأخذ الحرام والحلال تَبَعاً هَوَاه، كمن يحافظ على الصلوات الأربع (الظهر والعصر والمغرب والعشاء) في أوقاتها، ثم يتعمد أن يصلي الفجر بعد الشروق، فهذا يصلي الفجر قضاءً، لأن وقت الفجر ينتهي بشروق الشمس، وليس بأذان الظهر كما يظن البعض.

♦ وكذلك مَن تضعُ (حِجاباً) على رأسها وفي نفس الوقت ترتدي ملابس غير واسعة، أو تتعطر وتضع زينةً على وجهها.

الآية ٣٨: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اخرجوا في سبيل الله لقتال أعدائكم: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي تكاسلتم ولَزمتم مساكنكم، وتباطأتم كأنكم تحملون أثقالاً؟ ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: يعني هل فضَّلتم حظوظكم الدنيوية على السعادة الأبدية في الجنة (التي فيها كل نعيم)؟! فما حالكم إلا حال مَن رَضِيَ بالدنيا ولم يعمل للآخرة، ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أي فما تستمتعون به في الدنيا قليلٌ زائل، أما نعيم الآخرة – الذي أعَدَّهُ اللهُ للمجاهدين – فهو كثيرٌ دائم.

الآية ٣٩: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾: يعني إن لم تخرجوا لقتال عدوكم: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ سبحانه ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي يأتِ بقومٍ آخرين يطيعون الله ورسوله ويجاهدون في سبيله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾: يعني ولن تضروا الله شيئًا بإعراضكم عن الجهاد، فهو سبحانه الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه، وما يريده سبحانه سيكونُ لا مَحالة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِن نَصْر دينه ونَبيِّهِ مِن غيركم.

الآية ٤٠: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾: يعني إن لم تنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَخرجوا معه في هذا الظرف الصعب: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾: أي فقد أيَّدَهُ اللهُ بنَصْره في ظرفٍ أصعب منه، وذلك ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ أي حين أخرجه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن بلده (مكة)، وكانَ ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ (أي هو وأبو بكر الصِدِّيق رضي الله عنه)، فألجأهما الكفار إلى غار ثَوْر "بمكة"، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ماكثينَ فيه ثلاث ليالٍ، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ (أبي بكر) – لَمَّا كان خائفاً على رسول الله من اعتداء المشركين -: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعَوْنِهِ ونَصْرِه ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ - مِن عَلياءه - ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الطمأنينة والثبات على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾: أي أعانه بجنودٍ لم يَرَها أحد من البشر (وهم الملائكة الذين جعلهم اللّهُ حَرَساً له)، فبذلك نَجَّاهُ سبحانه من أعداءه ونَصَرَه عليهم، (ويُحتمَل أن يكون معنى قوله تعالى: (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) أي نَصَرَهُ اللهُ على المشركين بالملائكة يوم بدر ويوم الخَندق ويوم حُنَيْن، واللهُ أعلم)(واعلم أنّ هذه الآية قد تَضَمَّنَتْ إظهار شرف وفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأنّ اللهَ تعالى نَصَّ على صُحبته لرسوله في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة).

﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - وهي الدعوة إلى الشرك – فجَعلها ﴿السُّفْلَى﴾ أي المغلوبة التي لا يُسمَعُ لها صوت، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ - وهي دعوة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" - ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي الغالبة الظاهرة (وذلك بإعلاء اللهِ تعالى لشأن الإسلام)، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يَغلبه أحد، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون عباده.

الآية ٤١، والآية ٤٢، والآية ٤٣: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: أي اخرجوا للجهاد في سبيل الله شَبابًا وشيوخًا، في العُسر واليُسر (وعلى أي حالٍ كنتم)، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي وأنفِقوا مِن أموالكم في سبيل الله، وقاتِلوا بأيديكم لإعلاء كلمة الله، ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي الجهاد بالنفس والمال هو ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

♦ واعلم أنّ هذه الآيات قد نزلتْ في غزوة "تَبُوك"، حين بَلَغَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن هِرَقل (مَلِك الروم) قد جمع جُموعه لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد، وكان الجو حينها شديد الحرارة، وكان في البلاد مَجاعةٌ وجفاف، فاستحثَّ اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين بهذه الآيات، لِيَخرجوا مع نبيهم لقتال أعدائه.

♦ ثم وبَّخ اللهُ تعالى جماعةً من المنافقين، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف عن غزوة "تَبُوك"، فقال لِنَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾: أي لو كان خروجهم إلى غنيمة قريبة سهلة الحصول: لَخَرجوا معك، ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ يعني: ولكنهم لَمَّا دُعُوا إلى قتال الروم في

أطراف بلاد الشام، وفي وقت الحر: تخاذلوا وتخلفوا، (واعلم أنّ الشُقَّة هي الطريق الطويل الذي لا يُقطَع إلا بمَشقةٍ وعَناء)، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: يعني وسيعتذرون لك بسبب تَخلُّفهم عن الخروج، حالفينَ بالله بأنهم لم يستطيعوا ذلك، ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (حيثُ يَجلِبون لها غضبَ الله وعقابه بسبب نفاقهم وحَلفهم كذباً أثناء الاعتذار)، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في كل ما يُظهرونه لك من أعذار.

♦ ثم عاتَبَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم عندما أَذِنَ لهؤلاء المنافقين بالتخلف عن الجهاد، فقال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ فلم يُؤاخذك بما وقع منك عندما أَذِنتَ للمنافقين في القعود عن الجهاد، ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾: يعني لأيِّ سببٍ أَذِنْتَ لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة؟، هل أذِنْتَ لهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾: أي حتى يَظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم وتعلم الكاذبين منهم في ذلك؟ لقد كان الأوْلَى والأكمل: عدم الإذن لأحد، لأنّ هؤلاء قومٌ منافقون، وكانوا عازمين على عدم الخروج (ولو لم تأذَن لهم بالتخلف)، فإذا لم تأذن لهم وقعدوا: لَظَهَرَ للناس حقيقتهم.

♦ واعلم أنَّ الله تعالى قد أخبر نَبِيَّهُ بأنه قد عفا عنه قبل أن يُعاتبه: رحمةً به وإكراماً له، إذ لو قال له أوّلاً (لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)، لَطارَ قلبُهُ صلى الله عليه وسلم من الخوف والحُزن.

♦ وهذا من آداب النصيحة: (أن تبدأ باللُّطف مع المنصوح حتى يَستجيبَ لك)، فعلى سبيل المثال: (كانَ يُصَلِّي بجواري رجلٌ قد نَسِيَ أن يُغلِق هاتفه (المحمول) قبل الصلاة، فاتَّصَل عليه أحد الناس، وارتفع صوت الهاتف في المسجد، فأَغلق الرجل على المُتَّصِل، ثم أعاد الآخر الاتصال عليه، وظلاَّ هكذا إلى انتهاء صلاة الجماعة، فقام كثير من الناس يَنهَرون الرجل وهو يعتذر لهم، فانتظرتُ قليلاً حتى هدأ الناس، ثم قلتُ له: (أنا متأكد أنك قد نَسيتَ أن تُغلِقه قبل الصلاة وأنك لم تتعمد ذلك)، فقال لي: (نعم والله لقد نَسِيت)، فقلتُ له: (ولكنْ كان من الأفضل أن تُغلِقَ الهاتف غَلقاً نهائياً عند أول اتصال جاءَ لك)، فقال لي: (أليس هذا الفِعل يُبطِل الصلاة، لأنني سأقوم بحركاتٍ كثيرة؟)، فقلتُ له: (أليس ما فعلتَهُ أنت – مِن حركات - لِتُغلق عليه في كل مرة أكثر مِمَّا لو أغلقتَهُ غَلقاً نهائياً من أول مرة؟)، فاستجاب الرجل وتَعَلَّم بسبب اللُّطف معه في بداية النصيحة.

الآية ٤٤: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: يعني ليس مِن شأن المؤمنين أن يستأذنوك أيها الرسول في ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ طالما أنك لم تأمرهم بذلك، فهم لا يستأذنونك في الخروج ولا في القعود، وإنما هم مع ما يريده الله ورسوله.

♦ فإذا كانوا لا يستأذنونك في الجهاد إلا إذا أمَرْتَهم بذلك، فمِن باب أوْلَى أنهم لا يستأذنونك في القعود عنه، وذلك بسبب رغبتهم في الجهاد وفي كل ما يُرضِي الله ورسوله، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخافونه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

الآية ٤٥: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ – في التخلف عن الجهاد –: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي وشَكَّتْ قلوبهم فيما جئتَ به – أيها الرسول – من الإسلام وشرائعه، رغم عِلْمِهم بصِدقك، ورغم وضوح الحُجَج والبراهين على صحة رسالتك، ومع ذلك ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: أي فَهُم في شَكِّهم يَتحيَّرون.

****

٤. الربع الرابع من سورة التوبة

الآية ٤٦: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾: يعني ولو أراد هؤلاء المنافقون أن يَخرجوا معك – أيها الرسول – إلى الجهاد بصِدق: ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: أي لاَستعَدُّوا له بالزاد والراحلة وبكل ما يَلزم له، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: أي ولكنّ الله تعالى كَرِهَ خروجهم معكم (لِمَا فيه من الضرر والخطر عليكم) ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي فألقى في نفوسهم الرغبة في التخلف – عقوبةً لهم على عدم صِدقهم في الجهاد – فثَقُلَ عليهم الخروج، ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ مِن المَرضى والنساء والصِبيان.

الآية ٤٧: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾: يعني لو خرج المنافقون معكم (مُندَسِّينَ بينكم): ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾: أي لَنشروا الفساد والاضطراب في صفوفكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: يعني وسَيَسْعَوْنَ في أن يُوقِعوا بينكم العداوة والبغضاء، وذلك لأنهم ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: أي يريدون فِتنتكم (وذلك بتفريق جَمْعكم وبترغيبكم في التخلف عن الجهاد)، ﴿وَفِيكُمْ﴾ - أيها المؤمنون - ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾: أي عيون لهم (يَسمعون أخباركم ويَنقلونها إليهم)، وفيكم أيضاً مَن يُكثِرُ السماعَ لهم ويتأثر بأقوالهم الفاسدة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ المنافقين، وسيُجازيهم على أفعالهم.

الآية ٤٨: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أي لقد أراد المنافقون فتنة المؤمنين عن دينهم والإيقاع بينهم، وذلك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أي مِن قبل غزوة "تَبُوك" – عندما جاء النبي إلى المدينة مُهاجراً – فكشف الله أمْرهم، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: أي ودبَّروا لك – أيها الرسول – المَكائد، وكانوا يتعاونون مع اليهود والمشركين عليك (بقصد القضاء على دَعْوَتك)، وظلوا على ذلك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: أي حتى جاء النصر من عند الله، فَفُتِحَتْ مكة ودخل الناس

في دين الله أفواجاً ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك كله، إذاً فلا تحزنوا على عدم خروجهم معكم، فإنّ الله – رحمةً بكم ونصراً لكم – صَرَفهم عن الخروج معكم.

♦ وفي هذا دليلٌ على أن تدبير الله تعالى لأوليائه هو خيرُ تدبير، فلِذا وَجَبَ الرضا بقضاءه والتسليم به، حتى وإن لم يُوافق ما تريده النفس، لأنّ النفس لا تعلمُ أين الخير والأصلح لها.

الآية ٤٩: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومِن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لك: ﴿ائْذَنْ لِي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾: أي لا تجعلني أُفتَن بنساء جنود الروم (إذا خرجتُ معك)، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾: أي لقد سقط هؤلاء المنافقون في فتنة النفاق الكُبرى، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ إذ تَضيقُ عليهم ضِيقاً شديداً، ويُغَطِّيهم عذابها من فوق رؤوسهم ومِن تحت أرجلهم، قال تعالى: (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) (أي: دعوا على أنفسهم بالهلاك)، وقال تعالى: (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (أَعَاذَنا اللهُ وإخواننا المؤمنينَ من جهنم).

الآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾: يعني إنْ يُصِبْك – أيها الرسول – سرورٌ أو غنيمة: يَحزن المنافقون، ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾: يعني وإن يُصِبْكَ مَكروه أو هزيمة: ﴿يَقُولُوا﴾: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي نحن أصحابُ رَأْيٍ وتدبير، فقد احتطنا لأنفسنا بتخَلُّفِنا عن محمد، حتى لا يُصيبنا ذلك المكروه الذي أصابه، ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾: أي وينصرفوا وهم مسرورون بتخلفهم وبما أصابك من السوء، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (وما يَكتبه لنا ربنا لن يكونَ إلا خيراً)، إذ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصِرُنا ومُتولِّي أمْرَنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

♦ واعلم أنّ مِن صفات المنافقين: أن يَحزنوا بمَا يُفرح المسلمين، وأن يَفرحوا بما يُحزِن المسلمين، (ومِن ذلك فَرَحهم بوقوع العداوة والخصومة بين المسلمين)، فإذا وَجَدَ أحدٌ ذلك في قلبه: فليستعذ بالله تعالى ولْيُطَهِّر قلبه من هذه الصفة.

الآية ٥٢: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – لهؤلاء المنافقين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾: يعني هل تنتظرون بنا إلا النصر على أهل الشِرك والنفاق أو الاستشهاد في سبيل الله، ثم النعيم المقيم في جوار رب العالمين، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾: أي ونحن ننتظر بكم أن يُصيبكم اللهُ بعقوبةٍ عاجلةٍ مِن عنده تُهْلِكُكم، ﴿أَوْ﴾ يُعَذبكم ﴿بِأَيْدِينَا﴾ فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾: أي فانتظروا إنا معكم منتظرون، ولن نُشاهد إلا ما يَسُرُّنا ويُحزِنكم.

الآية ٥٣، والآية ٥٤، والآية ٥٥: ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول –: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: يعني أنفِقوا أموالكم في هذا الخروج إلى "تَبُوك" أو في غيره، وسواءٌ أكانَ ذلك الإنفاق باختياركم أو كنتم مُكرَهين عليه: فإنه ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: أي لن يَقبلَ اللهُ منكم نَفقاتكم لأنكم قومٌ خارجون عن دين الله وطاعته، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ يعني: وسبب عدم قَبول نفقاتهم أنهم أخْفوا الكُفرَ ﴿بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي مُتثاقِلون، لأنهم يُراءونَ الناس ولا يَطلبون الأجر من الله، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ الأموال ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (لأنهم لا يَرجون ثواباً على هذه الفرائض، ولا يَخشون عقابًا على تَرْكِها)، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ أيها الرسول ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ مهما بَلغتْ في الكثرة والحُسن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (وذلك بالمَشقة الشديدة في تحصيلها، وبالمصائب التي تقع فيها، مع عدم صَبْرِهم على تلك المصائب، لأنهم لا يَحتسبونَ الأجرَ عند الله).

♦ فأمَّا تعذيبهم في أموالهم فلأنّ ما يُنفقونه من المال – في الزكاة والجهاد – يَعتبرونه ضِدَّهُم وليس في صالحهم، لأنهم لا يريدون نَصْرَ الإسلام، فلذلك يَشعرون بألمٍ لا مَثيلَ له وهم يُنفقون، وأما تعذيبهم في أولادهم فلأنهم يُشاهدونهم يَدخلون في الإسلام ولا يستطيعون أن يَرُدُّوهم عن ذلك.

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾: أي ويريد سبحانه أن تخرج أرواحهم فيموتوا على كُفرهم، لِيَنتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذابٍ أشد (وذلك لأنّ أموالهم وأولادهم قد ألْهَتْهُم عن الله تعالى، فتعلقتْ بها قلوبهم وأصبحتْ هي كل هَمُّهُم، ولم يَبقَ للآخرةِ نصيبٌ في قلوبهم).

الآية ٥٦، والآية ٥٧: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي يَحلف لكم هؤلاء المنافقون – كَذِبًا وباطلاً – بأنهم على دينكم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يَخافون خوفاً شديداً منكم، فيَحلفون لكم لِيَأمَنوا بأْسَكم.

♦ ومِن شدة خوفهم منكم أنهم ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي مَأمَنًا وحِصْنًا يَحفظهم ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ يعني أو كُهُوفًا في جبلٍ تُؤويهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ يعني أو نَفقًا في الأرض يُنَجيهم منكم: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾: أي لانصرفوا إليه وهم يُسرعون، وذلك مِن شدة جُبنهم.

الآية ٥٨، والآية ٥٩: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعني: ومن المنافقين مَن يَعِيبُ عليك – أيها الرسول – في تقسيم الصَدقات، فيَتَّهِمُكَ بأنك لا تَعدِل في القِسمة، وغَرَضُهم الوحيد من هذا الانتقاد هو أن تُعطيهم من الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ عن قِسمة الرسول وسَكَتوا، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي صاروا غيرَ راضين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الصدقات، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي سيَكفينا اللهُ ما أهَمَّنا من أمْر الرزق، و﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ – أي سيُعطينا الرسول مِمَّا آتاهُ الله –، ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي طامعونَ راجونَ في أن يُوَسِّعَ علينا، فيُغنينا عن صدقات الناس، (لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وأنفع).

♦ واعلم أنّ إظهار عيوب المنافقين وكَشْف عوراتهم هو مِن مظاهر الرحمة الإلهية، وذلك لِيَتوبَ مَن أكْرَمَهُ اللهُ منهم بالتوبة، حتى يَسعدوا في الدنيا والآخرة.

****

٥. الربع الخامس من سورة التوبة

الآية ٦٠: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾: يعني إنما تُعطَى الزَكَوَات الواجبة ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم الذين لا يَملكون شيئًا من الدنيا، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ وهم الذين لا يَملكون كفايتهم وكفاية مَن يَعُولونهم، ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم الذين يُرسلهم الحاكم لِجَمْع الزكاة، (وكذلك الذين يقومون على حراسة أموال الزكاة، وكذلك الذين يقومون بتقسيمها وتوزيعها على مُستحِقيها)، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين تُؤَلِّفون قلوبهم بالزكاة، مِمَّن يُرْجَى إسلامه أو قوة إيمانه أو نفْعُهُ للمسلمين، أو دفْعُ شَرِّهِ عن المسلمين، ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي وتُعطَى الزكاة لِعِتق رقاب العبيد والإماء من الأَسْر.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أي: وتُعطَى الزكاة لمن اقترض – في غير معصيةٍ أو تبذير – ثم أثقلَتْه الديون فلم يَستطع سَدادها، (وكذلك تُعطَى الزكاة لمن يُلزِم نفسه بمالٍ معين من أجل الإصلاح بين القبائل والعائلات المتشاجرة، كأنْ يَدفع – مثلاً - مَبلغاً من المال لإرضاء إحداهما مقابل الإصلاح بينهما، أو يَدفع نقوداً مِن أجل إعداد طعام لِجَمْع القبيلتين عليه حتى يَصطلحا، فهؤلاء يُعْطَوْنَ مِن الزكاة – مِن أجل هذا الإصلاح – ولو كانوا أغنياء).

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وتُعطَى الزكاة للمجاهدين في سبيل الله، واعلم أنّ بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنَّ الحج يَدخل في هذا الباب أيضاً، لأنّ الحج يُعتَبَر نوعٌ من أنواع الجهاد في سبيل الله، كما ثبتَ في الحديث: (أفضلَ الجهاد حَجٌّ مبرور) (البخاري: ١٥٢٠)، قالَ ابن تَيْمِيَة رحمه الله: (وَمَن لم يَحُجّ حَجَّة الإسلام وهو فقير، أعْطِيَ ما يَحُجّ به)، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: أي وتُعطَى للمسافر الذي فَقَدَ ماله – أو نَفَد ماله – واحتاجَ للنفقة.

♦ وقد كانت هذه القِسمة ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ فرَضَها عليكم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وشرعه.

الآية ٦١، والآية ٦٢: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ يعني: ومِن المنافقين قومٌ يُؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾: أي ويقولون عنه: (إنه يستمع لكل ما يُقالُ له فيُصَدِّقه)، ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول -: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾: يعني إنَّ محمدًا يَسمعُ مِن كل مَن يُكَلِّمه، فلا يَتكبر على أحد، (ولكن لا يُقِرّ إلا بالحق ولا يَقبل إلا الخير والمعروف)، وهو ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي يُصَدِّقُ المؤمنين فيما يُخبرونه، ويُحسنُ الظنّ بمَن يُحَدِّثه (ما لم يَصدُر مِن أحدهم خِلافُ ذلك)، فإذا عَلِمَ أنّ مَن يُحَدِّثُه كاذب، فإنه يَسمع منه ولا يُصَدِّقه، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾: أي وهو رحمةٌ لمن اتَّبعه واهتدى بهُداه، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ - بأي نوع من أنواع الإيذاء - ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

♦ واعلموا أنّ هؤلاء المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ – كَذِباً – بأنهم ما طَعَنوا في الرسول ولا قالوا فيه شيئاً، وذلك ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون، حتى لا تَبْطِشوا بهم انتقاماً لِكَرامة نَبِيِّكم، ﴿وَاللَّهُ﴾ أحق أن يُرضوه بالتوبة إليه والاستغفار، ﴿وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ بطاعته واتِّباعه ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حقًا كما يَزعمون.

الآية ٦٣: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعني: ألم يَعلم هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ﴾ أي مَن يُحاربُ ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (وذلك بأن يَسُبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أو يَذمّ فيه): ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾: أي ذلك المصير هو الذل العظيم.

الآية ٦٤: ﴿يَحْذَرُ﴾ أي يَخاف ﴿الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي تُنَزَّلَ في شأنهم ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا﴾ يُخفونه ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكُفر، ﴿قُلِ﴾ لهم – أيها الرسول -: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾: أي استمِروا على ما أنتم عليه من السخرية والطعن في الإسلام وأهله، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي مُخْرِجُهُ من نفوسكم ومُظهِرُهُ للناس أجمعين (وبالفِعل، فقد أخرج سبحانه ما في قلوبهم وفضحهم في هذه السورة، التي سُمِّيَتْ بـ "الفاضحة").

الآية ٦٥، والآية ٦٦: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ - أيها الرسول – عما قالوا في حقك وحق أصحابك: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: يعني إنما كنا نتحدث بكلامٍ لا قصدَ لنا به، ونلعب تقصيراً للوقت ودفعاً للملل.

♦ واعلم أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ بعض المنافقين – في غزوة "تَبُوك"– قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَظن هذا أنه يَفتح قصور الشام وحصونها)، واتَّهموا أصحابه بالجُبن ومِلْء البطون، فأطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عليهم، فدعاهم، فجاءوا واعتذروا له، فأنزل تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؟ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾: أي لا فائدة مِن اعتذاركم، فـ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بسبب هذه المَقولة التي استهزأتم بها، ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ

مِنْكُمْ﴾ طلبتْ العفو وصَدَقَتْ في توبتها: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أخرى ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: أي بسبب إجرامهم بهذه المَقالة الفاجرة وعدم توبتهم من النفاق.

الآية ٦٧: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني إنهم صِنفٌ واحد في إظهارهم للإيمان وإخفائهم للكفر، ومتشابهون في أقوالهم وأعمالهم، فمِن صفاتهم أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾: أي يأمرون الناس بالكُفر ومعصية الرسول، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: أي وينهونهم عن الإيمان والطاعة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي يُمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله.

♦ وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: أي تركوا الله فلم يؤمنوا به ولم يؤمنوا برسوله، فتَرَكهم تعالى محرومين من هدايته ورحمته ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الآية ٦٨، والآية ٦٩: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: أي يَكفيهم عذابُ جهنم، عقابًا لهم على كُفرهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طَرَدهم مِن رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ لا يُفارقهم لحظة.

♦ ثم وَضَّحَ سبحانه بعض الصفات والأفعال التي استحقوا بها هذا العذاب، فقال لهم: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني إنَّ أفعالكم – أيها المنافقون – هي نفس أفعال المُكَذِّبين من الأمم السابقة (كالاستهزاء والكُفر والاغترار بالمال والأولاد)، فقد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فرَضُوا بحياتهم الدنيا عِوَضاً عن الآخرة ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾: أي فتَمتَّعوا بنصيبهم من المَلَذَّات الرخيصة، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿بِخَلَاقِكُمْ﴾ أي بنصيبكم من الشهوات الفانية ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾، وتركتم العمل للآخرة، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾: أي خُضتم في الباطل والشر والفساد كَخَوْض تلك الأمم قبلكم، ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات هم الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي ذهبتْ حسناتهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لأنها لم تكن خالصة لِوَجه الله تعالى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بِبَيْعِهم نعيم الآخرة الأبدي مقابل حظوظهم العاجلة.

الآية ٧٠: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين خبرُ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كـ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ - وهم الذين أرسل اللهُ إليهم شعيباً - ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ - وهي قرى قوم لوط (وهي ثلاث مدن، ومعنى المُؤتَفِكات أي المُنقلِبات، حيثُ صارَ عالِيها سافلها) – فهؤلاء الأمم قد ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات الدالَّة على صِدقهم في رسالاتهم فكذَّبوهم، فأنزل اللهُ بهم عذابه انتقامًا منهم لِسُوء أعمالهم

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، (وقد كَذَّبتم أيها المنافقون رَسولنا عندما جاءكم بالبينات – كما كَذَّبَ الذين من قبلكم رُسُلَهم –، فتوبوا حتى لا يُصيبكم ما أصابهم).

الآية ٧١: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم أنصارُ بعض، ومِن صفاتهم أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أي يأمرون الناس بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: أي يَنهونهم عن الكُفر والمعاصي، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: أي يُؤَدُّونها – بشروطها وأركانها – في خشوعٍ واطمئنان ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ فيُنقِذهم من عذابه ويُدخلهم جنته، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ على أمْره في تحقيق وَعْده ووعيده ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضع كل شيء في مَوضعه اللائق به، فيُعذب المنافقين ويُنَعِّم المؤمنين.

الآية ٧٢: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري الأنهار مِن خِلال قصورها وأشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: وَوَعَدَهم سبحانه مساكنَ حَسَنَة البناء، طَيِّبة الرائحة (كالقصور والخِيام المصنوعة من اللؤلؤ)، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح مسلم –: "إنّ للمؤمن في الجنة لَخَيْمةً مِن لؤلؤة واحدة مُجَوَّفة، طُولها سِتُّونَ مِيلاً، للمؤمن فيها أهْلُون، يطوفُ عليهم المؤمن فلا يَرى بعضهم بعضاً"، ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: أي في جنات الخلود، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يُحِلُّهُ عليهم: ﴿أَكْبَرُ﴾ - أي أعظم مِمَّا هم فيه من النعيم – ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الآية ٧٣: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ المُحاربين بالقتال، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: وجاهِد المنافقين باللسان والحُجَّة، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: أي اشدُد على كِلا الفريقين في القول والفعل، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ - أي مَقرُّهم - ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ٧٤: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾: أي يَحلف المنافقون بالله إنهم ما قالوا شيئًا يُسيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنهم لَكاذبون في ذلك، ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾: أي قالوا كلمةً يَكفُرُ بها مَن قالها، وهي قول أحدهم: (إنْ كانَ ما جاء به محمدٌ حقاً: لَنحن شَرٌّ مِن الحَمير)، ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: أي وارتَدُّوا بهذه الكلمة عن الإسلام، ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾: أي وحاولوا قتْل الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يُمَكِّنهم الله من ذلك.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾: يعني: وما وجد المنافقون شيئًا يَعيبونه ويَنتقدونه في الإسلام ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: يعني إلا أن كانوا فقراء، فأغناهم اللهُ بما فتح على نَبيِّهِ من الخير والغنائم ! (وهذا على سبيل السُخرية منهم)، وإلاَّ، فهل الغِنَى بعد الفقر مما يَكرهه المَرء؟!، والجواب لا، ولكنّ الكُفر والنفاق يُفسدان العقل والفِطرة.

♦ ورغم كل ما قاموا بهِ من كُفرٍ وفساد، فإنّ الربَّ الرحيم قد فتح لهم باب التوبة، فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾: يعني وإن يُعرضوا عن التوبة ويستمروا على حالهم: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي وليس لهم – في الأرض جميعاً – مِن مُنقذ يُنقذهم، ولا ناصر يَدفع عنهم عذابَ الله.

****

٦. الربع السادس من سورة التوبة

الآية ٧٥، والآية ٧٦، والآية ٧٧: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي ومِن فقراء المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ فقال: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾: أي لئن أعطانا اللهُ مالاً كثيراً لَنتصدَّقنَّ منه ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي ولَنعمَلنَّ مِثل ما يَعمل الصالحون في أموالهم، ولَنَسيرَنَّ في طريق الصلاح، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ﴾: أي فلَمَّا أعطاهم اللهُ ﴿مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ أي لم يُؤدوا زكاة هذا المال، وبَخِلوا بإنفاقه في الخير، ﴿وَتَوَلَّوْا﴾: أي أعرَضوا عن الإسلام، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾: يعني وَهُم دائمًا مُعرضون عن الحق، غير مُلتفتين إلى ما يَنفعهم.

♦ فلَمَّا لم يَفوا بما عاهَدوا اللهَ عليه، عاقبهم سبحانه ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أي فجعل عاقبة فِعلهم أَنْ زادهم نفاقًا على نفاقهم، وجعل النفاق مُلازِماً لقلوبهم لا يُفارقها ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه، وذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: أي بسبب إخلافهم الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، وبسبب نفاقهم وكَذِبهم.

♦ فليَحذر المؤمن من هذه الصفة القبيحة، وهي أن يُعاهد ربه بأنه إنْ حَصَلَ شيئاً يَتمناه: لَيَفعلنَّ كذا وكذا، ثم لا يَفي بذلك(وعلى مَن وقع في ذلك أن يُسارِع إلى التوبة، حتى لا يُعاقِبَهُ اللهُ كما عاقب هؤلاء، اللهم عفوك وغفرانك لنا).

الآية ٧٨، والآية ٧٩، والآية ٨٠: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعني ألم يَعلم هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي يَعلم ما يُخفونه في أنفسهم وما يَتحدثون به في مجالسهم من الكيد للمسلمين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؟ أي يَعلم كل ما غابَ عن حَواسّ الناس، وأنه سبحانه سوف يُجازي المنافقين على أعمالهم الخبيثة؟

♦ ورغم بُخل المنافقين: فإنّ المُتصدقين لا يَسلَمون مِن أذاهم، ولذلك أخبر سبحانه بأن هؤلاء المنافقين هم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾: أي يَعيبون على الأغنياء إذا تصدقوا بالمال الكثير ويَتهمونهم بالرياء، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يعني: وكذلك إذا تَصَدَّقَ الفقراء بما يَقدرون عليه:

سَخِروا منهم، وقالوا: (ماذا تنفع صدقتهم هذه؟)، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي مِن هؤلاء المنافقين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

♦ واعلم أنّ كلمة (الْمُطَّوِّعِينَ) أصلها: (المُتطوعين)، ولكنْ أُدْغِمَتْ التاء في الطاء لِقُرْب مَخرَجَيْهِما، (واعلم أيضاً أنّ المُتطوعين: هم الذين يفعلون الشيء تبرُّعاً منهم مِن غير أن يَجب عليهم).

♦ ولَمَّا نزلت هذه الآيات الفاضحة للمنافقين، جاءَ بعضهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يَطلبون منه أن يَستغفر لهم، فاستغفر لهم الرسول رحمةً بهم، فأعْلَمَهُ ربّه أنّ استغفاره لهؤلاء المنافقين لا يَنفعهم، وذلك لإصرارهم على الكُفر والنفاق، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾: يعني مَهما كَثُرَ استغفارك لهم وتَكَرَّر: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (وهذا السبب يكفي، لأنهم كفروا ولم يتوبوا مِن كُفرهم، والكافر مُخَلَّد في النار عِياذاً بالله تعالى)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الآية ٨١، والآية ٨٢: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفوا عن الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بقعودهم في "المدينة" ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: أي فرحوا بمخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - وذلك في غزوة "تَبُوك" التي كانت في شدة الحرِّ، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: (لا تخرجوا للجهاد في هذا الحرِّ الشديد) ﴿قُلْ﴾ لهم - أيها الرسول -: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يَفهمون (فإذا كانوا يخافون من الحر، فلماذا لا يَخرجون في سبيل الله حتى يَتَّقوا حر جهنم؟!).

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في حياتهم الدنيا بما يَحصل لهم من المَسرّات، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في نار جهنم (لِمَا يُصيبهم من العذاب، وتَحَسُّراً على حِرمانهم من النعيم)، وذلك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الشر والفساد.

♦ واعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلاً ولَبَكَيْتم كثيراً، ولَخَرَجتم إلى الصُّعُدات - أي إلى الطُرُقات - تَجأرون إلى اللهِ تعالى) (أي تتضرعون إليه بالدعاء ليَدفع عنكم العذاب) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٥٢٦٢).

الآية ٨٣: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ - أيها الرسول - مِن غَزْوَتِك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي إلى جماعةٍ من المنافقين المُصِرّين على نفاقهم ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوةٍ أخرى بعد غزوة "تَبُوك" ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ في غزوةٍ من الغزوات ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ من النساء والأطفال (فهذا القول يُعَظِّم حَسْرتهم، ويَحمل لهم سَبًّا وعَيباً جزاءَ تَخَلُّفِهم عن الجهاد).

♦ وفي الآيات السابقة دليل على أنّ الفرح بترك طاعة اللهِ ورسوله علامة من علامات النفاق، وأنّ تعمُّد تَرْك الطاعة قد يسبب الحرمان منها.

الآية ٨٤، والآية ٨٥: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ - أيها الرسول - ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي مِن المنافقين ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ لِتَتَوَلَّى دَفْنَهُ وتدعو له بالرحمة والمغفرة وبالتثبيت عند السؤال كما تفعل مع المؤمنين، والسبب في ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تظن أنّ اللهَ قد أعطاهم ذلك كرامةً لهم، فيكون ذلك سبباً في أن تُصَلِّي عليهم، و ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ (وذلك بالهَمّ في تحصيلها، وبالمصائب التي تقع فيها، مع عدم صَبْرِهِم على تلك المصائب، لأنهم لا يَحتسبونَ الأجرَ عند الله).

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: ويريد سبحانه أن تخرج أرواحهم فيموتوا على كُفرهم، لِيَنتقلوا إلى عذابٍ أبدي لا يخرجون منه، عقوبةً لهم على إصرارهم وعِنادهم مِن بعد ما تَبَيَّنَ لهم الحق.

الآية ٨٦، والآية ٨٧: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ على محمد صلى الله عليه وسلم تأمُر الناس بـــ ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وأخلِصوا له العبادة ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ فإنك تَجدُ المنافقين وقد ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: أي استأذنك الأغنياء منهم في التخلف عن الجهاد ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي اتركنا مع القاعدين العاجزين عن الخروج، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾: أي لقد رَضِيَ هؤلاء الجُبَناء لأنفسهم بالعار، وهو أن يَقعدوا في البيوت مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار، ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: أي ختم اللهُ على قلوبهم بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهادِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما فيه رُشدهم وصَلاحهم.

الآية ٨٨، والآية ٨٩: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي لهم النصر والغنيمة في الدنيا، ولهم الجنة في الآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون برضا اللهِ تعالى، وقد ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي حدائق وبساتين عجيبة المَنظر ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الآية ٩٠: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: أي وجاء جماعة من سُكَّان البادية (وهم البَدْو الذين كانوا يعيشون حول "المدينة")، فجاءوا يعتذرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويُبَيِّنونَ له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج للجهاد ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القعود (وقد يكونون معذورين حقاً، وقد لا يكونون كذلك).

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي وقعد قومٌ آخرون بغير عُذرٍ (وهؤلاء هم مُنافقوا الأعراب الذين ادّعَوا الإيمان بالله ورسوله، وما هم بمؤمنين، بل هم كافرون منافقون)، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

♦ واعلم أنّ لفظ: (المُعَذِّرون) معناه المُعتذرون، فأُدغِمَتْ التاء في الذال فصارت: (المُعَذِّرون)، وهذا اللفظ يَصِحّ أن يكون المُراد به: (المعتذرون لأسبابٍ صحيحة)، ويَصِحّ أن يكون المُراد به: (الذين لا عُذرَ لهم، ولكنهم يعتذرون بأعذارٍ كاذبة)، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، أنّ اللفظ الواحد منه يَحتمل أكثر مِن معنى.

الآية ٩١: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى﴾ الفقراء ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾: أي الذين لا يَملكون المال الذي يَتجهزون به للخروج، فليس على هؤلاء ﴿حَرَجٌ﴾ أي ليس عليهم إثم في التخلف ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: يعني إذا صَدَقوا في إيمانهم بالله ورسوله، وأخلَصوا النيّة لله تعالى بأنهم لو قَدَروا لَجَاهَدوا (إذ النُصح: هو إخلاص العمل من الغِش)، وكذلك إذا نَصَحوا المسلمين القادرين (بترغيبهم في الجهاد وتشجيعهم عليه).

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾: أي ليس على المحسنين - الذين مَنَعَهم العذر - مِن طريقٍ إلى مؤاخذتهم وعقابهم، (لأنهم صَدَقوا في اعتذارهم، وسَعَوا فيما يُرضِي اللهَ ورسوله وفيما يَنفع المسلمين)، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (ومِن مَغفرتِهِ سبحانه ورحمته أنه عفا عن العاجزين، ولم يُكَلِّفهم فوق طاقتهم، بل إنه أثابهم بنيّتهم ثوابَ القادرينَ الفاعلين)، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم في غزوة "تَبُوك": (لقد تَرَكتم بالمدينةِ أقواماً ما سِرتم مَسيراً، ولا أنفقتم مِن نفقةٍ، ولا قطعتم مِن وادٍ إلاّ وهُم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟! قال: حَبَسهم العُذر" (انظر صحيح سنن أبي داوود: ج ٣ /١٢).

♦ وفي هذا دليلٌ على ما كانَ عليه الصحابة مِن الإيمان واليقين والسمع والطاعة والمحبة والولاء ورقة القلوب وصفاء الأرواح، فاللهم إنا نحبهم بِحُبِّكَ لهم، فاجمعنا معهم في جنتك ودار كرامتك.

الآية ٩٢: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ يعني: وكذلك لا إثمَ على الذين جاؤوك يَطلبونَ منك أن تَحمِلهم إلى الجهاد ، فـ ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الدَوَابِّ، فعندئذٍ ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي انصرفوا إلى بيوتهم ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي تسيل دموعهم أسفًا على ما فاتهم من شرف الجهاد وثوابه ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما يُنفِقون، ولم يَجدوا ما يَحملهم للخروج في سبيل الله.

****

٧. الربع السابع من سورة التوبة

الآية ٩٣: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾: يعني إنما الطريق إلى المعاقبة، (والمعنى: إنما الإثم والعقاب) ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي قادرون على الجهاد بأموالهم وأنفسهم، ومع ذلك فقد ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ من النساء وأهل الأعذار، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالنفاق فلا يَدخلها إيمان، لذلك ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سُوءَ عاقبة تخلفهم عن الجهاد.

الآية ٩٤: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ أي يعتذر لكم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد بالأعذار الكاذبة ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة "تَبُوك"، ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول -: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فإننا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نُصَدِّقكم فيما تقولون، فـ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: أي قد أخبَرَنا اللهُ مِن أمْركم ما أكَّدَ لنا كَذِبكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ إن كنتم تتوبون مِن نفاقكم، أو تُصِرُّون عليه، وسيُظهِرُ سبحانه للناس أعمالكم في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد مماتكم ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي إلى الذي لا تَخفى عليه بَواطن أموركم وظَواهرها ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يُجازيكم على أعمالكم.

الآية ٩٥: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ كاذبينَ مُعتذرينَ ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: أي إذا رجعتم إليهم مِن جهادكم، وسبب هذا الحَلِف الكاذب: ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾: أي لِتتركوهم ولا تعاقبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارًا لهم، ولا تهتموا بشأنهم، ولا تُعاتبوهم على تَخلفهم، فـ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي خُبَثاء البَواطن ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكُفر والنفاق.

الآية ٩٦، والآية ٩٧: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ كَذِبًا ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ - لأنكم لا تعلمون كَذِبَهم -﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾: أي فإنّ اللهَ لا يَرضى عن هؤلاء – ولا عن غيرهم – مِمّن استمروا على الخروج عن طاعة الله.

♦ ولَمَّا ذَكَرَ تعالى حال مُنافِقي المدينة، ذَكَرَ هنا حال مُنافِقي البادية (الصحراء) وذلك لِيُعرَفَ المنافقون جميعاً، فقال سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أي مُنافِقوا الأعراب هم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِن مُنافِقي أهل المُدُن، وذلك لِجَفاء الأعراب وغِلظتهم، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: وهم أحَقّ وأقرَب ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الأحكام والشرائع، فقد استحقوا ذلك الجَهل لِبُعدهم عن العلم والعلماء وعن مجالس الوعظ والذِكر (عِلماً بأنهم لا يُعذَرونَ بِجَهْلِهم في ذلك، لأنّ عليهم أن يَتركوا البادية ويَنتقلوا إلى الحَضَر)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحال المنافقين جميعًا، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعه وفي تدبير أمور عباده.

الآية ٩٨: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾: يعني: مِن الأعراب مَن يَرى أنّ ما يَتصدق به أمام الناس يَعودُ عليه بالغَرامة والخُسارة (لأنه لا يرجو بصدقته ثوابًا، ولا يَدفع بها عن نفسه عقابًا) ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾: أي يَنتظر نزول المَصائب والبَلايا بالمسلمين لِيَتخلص منهم ومن الإنفاق لهم، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني: ولكنّ الهلاك والشقاء دائرٌ عليهم لا على المسلمين، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بنِيَّاتهم الفاسدة.

الآية ٩٩: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وما فيه من الثواب والعقاب ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: أي يَنوي بنفقته الوصول إلى رضا الله تعالى، ويَجعل صدقته وسيلة للحصول على دعاء الرسول له، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه المؤمن بزكاته أو صدقته: يَدعو له بخير (واعلم أنّ القُرُبات: جمع قُرْبة، وهي المَنزلة المحمودة)، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾: يعني ألاَ إنّ هذه الصدقات تُقرِّبهم إلى الله تعالى، و﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا فعلوا من السيئات، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

الآية ١٠٠: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾: يعني: والذين سَبَقوا الناسَ أولاً إلى الإيمان والنُصرة والجهاد ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هجروا قومهم الكُفار، وانتقلوا إلى دار الإسلام، ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم على أعدائه، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ - في العقيدة والأقوال والأعمال وفَهم الدين -، أولئك ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب طاعتهم لله ورسوله، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سبحانه لِمَا أعطاهم من الثواب العظيم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (ولعل نَزْع حرف الجر: (مِن) - وذلك في قوله تعالى: ﴿تجري تَحْتَهَا﴾ - خِلافاً لباقي مواضع القرآن الكريم: للدلالة على كثرة ماء هذه الأنهار، ولأنه سبحانه خَصَّ هذه الطائفة المذكورة في الآية بجنةٍ هي أعظم الجَنَّات ريًّا وحُسنًا، والله أعلم)، (وفي هذه الآية ثناءٌ على الصحابة رضي الله عنهم، وتَزكيةٌ لهم، ولهذا فإنّ توقيرهم من أصول الإيمان).

♦ فَيَا مَن تسبُّون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، باللهِ عليكم أخبرونا: (هل تزعمون كَذِباً أن الله تعالى لم يُحسِن اختيار أصحاب نَبِيِّهِ الخاتم صلى الله عليه وسلم، معَ عِلمِهِ سبحانه أنّ هؤلاء الصحابة هم الذين سيَحملون دينه – الذي ارتضاهُ للناس – ويُوصلونه لجميع الخلق إلى قيام الساعة؟!)، وقد خالفتم إجماع المسلمين – واخترعتم ديناً جديداً ما أنزل اللهُ به من دليل – وكل ذلك بسبب اتِّباعكم لأهوائكم، وبسبب إضلال اليهود لكم، كما أضلوا النَصارَى.

♦ ومِن لطيف ما يُذكَر أنّ أحد علماء المسلمين كان على مَوعد مع علماء الشيعة لِيُناظرهم، فجاء إلى المُناظرة وهو يضع حذائه تحت إبطِه، فسألوه: (لماذا تدخل المُناظرة وأنت تحمل حذائك؟!)، فقال لهم: (لقد سمعتُ أنّ الشيعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يَسرقون الأحذية)، فقالوا له: (لم يكن هناك شيعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم)، فقال لهم: (إذاً انتهت المُناظرة، مِن أين أتيتم بدينكم ومَذهبكم؟!)، فهَدَمَ دينهم – الذي اخترعوه – بهذه الكلمة.

الآية ١٠١: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقونَ ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾: أي اعتادوا على النفاق، وتدرَّبوا عليه.

♦ وأنت أيها الرسول ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لأنهم تَفَنَّنوا في إخفاء نفاقهم حتى صَعُبَ عليك تمييزهم مِن بين المسلمين، ولكننا ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ و﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مَرّة بالقتل والأسر والفضيحة في الدنيا، ومَرّة بعذاب القبر بعد الموت، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في نار جهنم يوم القيامة.

الآية ١٠٢، والآية ١٠٣: ﴿وَآخَرُونَ﴾ يعني: وهناك أُناسٌ آخرونَ ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ونَدِموا عليها، وهؤلاء قد ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ - وهو توبتهم واعترافهم بالذنب، وغير ذلك من الأعمال الصالحة - ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ - وهو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من الأعمال السيئة - ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (هذا إعلامٌ من الله تعالى بقبول توبتهم، لأنّ كلمة (عسى) إذا جاءت من الله تعالى، فإنها تفيد التأكيد ووجوب الوقوع)، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة وقَبِلَها منهم.

♦ ثم جاء هؤلاء التائبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأموالهم وقالوا له: (هذه أموالنا التي تَخَلَّفنا بسببها صدقةً، فخُذها يا رسول الله)، فقال لهم: (إني لم أُؤْمَر بذلك)، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ مِن ذنوبهم ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: أي تَرفعهم عن درجة المنافقين إلى درجة المُخلِصين، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: أي ادعُ اللهَ أن

يَغفر ذنوبهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾: يعني إنّ دعاءك واستغفارك رحمةٌ وطمأنينةً لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لكل دعاءٍ وقول، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونِيَّاتهم، وسيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

الآية ١٠٤: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾: يعني ألم يعلم هؤلاء التائبون ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ وحده الذي ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صَدَقوا في توبتهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم، فيَقبلها ويُضاعِف ثوابها لهم حتى تكون أعظم من الجبل (كما ثبت ذلك في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم)، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي كثير قَبول التوبة من التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

الآية ١٠٥: ﴿وَقُلِ﴾ - أيها الرسول – لهؤلاء التائبين: ﴿اعْمَلُوا﴾ الأعمال التي تُرضِي الله تعالى من أداء الفرائض واجتناب المعاصي، تطهيراً لكم وتزكيةً لنفوسكم ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (وسوف يُثنون عليكم بعملكم في الدنيا) ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي وستُرجَعون يوم القيامة إلى مَن يَعلمُ سِرَّكُم وعَلانيَّتكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويُجازيكم على أعمالكم الصالحة أحسنَ الجزاء.

الآية ١٠٦: ﴿وَآخَرُونَ﴾ يعني: ومِن هؤلاء المتخلفين عن غزوة "تَبُوك" آخرونَ ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: أي مُؤَخَّرون لِحُكم الله وقضائه فيهم: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويَعفو عنهم.

♦ وهؤلاء هم الذين ندموا على ما فعلوا، وهم: (مُرارة بن الربيع، وكَعْب بن مالك، وهلال بن أُميَّة)، فهؤلاء الثلاثة قد تأخروا في توبتهم واعتذارهم، فأمَرَ الرسول صلى الله عليه وسلم بِهَجْرهم (أي بمقاطعتهم) حتى يَحكم اللهُ فيهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يَستحق العقوبة أو العفو، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قضائه وشرعه.

الآية ١٠٧: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: يعني وهناك منافقون قد بَنوا مَسجدًا مِن أجل الإضرار بالمسلمين وإيجاد عداوات بينهم، وتشكيكاً لهم في دينهم، ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِيُصلي فيه بعضهم ويَترك مسجد "قِباء" الذي يصلي فيه النبي والمسلمون، فحينئذٍ يَختلف المسلمون ويَتفرقوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي وانتظاراً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ - وهو أبو عامر - ذلك الراهب الفاسق الذي ذهب إلى الروم لِيُحَرِّضهم على قتال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فانتظره المنافقون ليأتيَ إليهم في ذلك المسجد، ليكون مكانًا للكيد للمسلمين، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ هؤلاء المنافقون كذباً ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخير للمسلمين، والرِّفق بالعاجزين عن السير إلى مسجد "قِباء"، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يَحلفون عليه.

الآية ١٠٨: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾: أي لا تقم – أيها الرسول – للصلاة في ذلك المسجد ﴿أَبَدًا﴾، إذ إنّه ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ - وهو مسجد "قِباء" - ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة، فإنّ مسجد "قِباء" ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون من ذنوبهم بالتوبة والاستغفار، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المتطهرين، (وقد أُدغِمَت التاء في الطاء فصارت: (الْمُطَّهِّرِينَ))، (واعلم أنّ هذا المسجد الذي بناه المنافقون قد هَدَمَهُ المسلمون وأحرقوه، بأمْرٍ من النبي صلى الله عليه وسلم).

الآية ١٠٩: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ أي مَسجده ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي على خوفٍ من الله وطلباً لرضاه ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ أي مسجده ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي على طرف حفرة قاربتْ على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ ذلك البُنيان الخبيث ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ليُعَذَبَ فيها؟ لا يستويان أبداً، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المتجاوزينَ لحدوده.

الآية ١١٠: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى: أنّ المنافقين عندما بَنوا ذلك المسجد لغرضٍ فاسد، جعل الله ذلك المسجد سبباً لبقاء النفاق في قلوبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني إلا أن تتقطع قلوبهم، وذلك بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وخوفهم من ربهم غاية الخوف، حتى يَقبل الله توبتهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في صدور هؤلاء المنافقين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وقضائه، وفي فتح باب التوبةِ لعباده.

****

٨. الربع الأخير من سورة التوبة

الآية ١١١، والآية ١١٢: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ﴾ – في مُقابل ذلك – ﴿الْجَنَّةَ﴾ وما أعَدَّ اللهُ لهم فيها من النعيم، فهُم ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويُقَدِّمون أرواحهم وأموالهم قرباناً إلى ربهم لإعلاء كلمته، بأنْ يُعبَدَ وحده ولا يُعبَد غيره، ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ الكفار والمشركين ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ أي يَموتون شهداء في سبيل الله.

♦ فبهذا وَعَدَهم ربهم بالجنةِ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: أي وعداً حقاً، عليه الوفاء به، ثم أخبر تعالى بأنّ هذا الوعد موجودٌ في أشرف كُتُبِهِ المُنَزَّلة، إذ هو مَذكورٌ ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التي جاء بها أكْمَل الرسل (أولو العَزم)، وكلها اتفقتْ على هذا الوعد الصادق، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾: يعني ولا أحد أصْدَق – ولا أقدَر –

مِن اللهِ تعالى في الوفاء بما وَعَدَ به، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أي فافرَحوا – أيها المؤمنون - ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ﴾ اللهَ ﴿بِهِ﴾، وبما وَعَدَكم به تعالى من النعيم الأبدي، ﴿وَذَلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

♦ ومِن صفات هؤلاء المؤمنين – الذين بَشَّرَهم اللهُ بالجنة – أنهم هم ﴿التَّائِبُونَ﴾ الذين رجعوا عَمَّا كَرِهَهُ الله إلى ما يحبه ويرضاه، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين أخلصوا العبادةَ للهِ وحده، واجتهدوا في طاعته (بِحُبٍّ كامل مع ذلٍ تام، وذلك باستشعار نِعَمِهِ وذنوبهم)، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يَحمدون اللهَ على كل ما امتحنهم به، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح مسلم –: (عَجَباً لأمْر المؤمن، إنّ أمْرَهُ كله خير، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابتْهُ سَرَّاءُ شَكَر، فكان خيراً له، وإنْ أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له).

♦ وهم ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي الصائمون، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي المقيمون الصلاة، المُكثِرون من نوافلها (فكأنهم دائماً في ركوع وسجود)، وهم ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ – بالحكمة والموعظة الحسنة – ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (بشرط ألاَّ يتسبب إنكارهم للمُنكَر في مُنكرٍ أكبر منه)، ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي القائمون على طاعة الله، الواقفون عند حدوده، ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول هؤلاء ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد في الدنيا، وبدخول الجنة في الآخرة.

الآية ١١٣: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ أي ولو كانوا أصحابَ قرابةٍ لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا﴾ ماتوا على الشرك، و﴿تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾.

الآية ١١٤: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ المُشرك ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وهي قوله له: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾: أي فلما تبيَّن لإبراهيم أنَّ أباه يُعادِي اللهَ تعالى، وأنه لن ينفع معه الوعظ والتذكير، وأنه سيموتُ كافرًا: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وتَرَكَ الاستغفار له، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التضرع إلى اللهِ تعالى، فلذلك وَعَدَ أباه بالاستغفار له، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي كثير العفو عن أذى الناس وأخطائهم.

الآية ١١٥: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ ولا يُعذبهم بأفعالهم ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يُبيِّن لهم الحلال والحرام لكي يتقوه، فإذا لم يتقوه – بعد أن عَلَّمَهم وأقامَ الحُجَّة عليهم - أضَلَّهم سبحانه بِعَدْلِهِ

وحِكمته، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (فلا يُضِلُّ سبحانه إلا مَن عَلِمَ أنه يَستحق الضلال، كما أنه لا يَهدي إلا مَن عَلِمَ أنه يَستحق الهداية).

الآية ١١٦: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهنّ، لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة والتشريع، ﴿يُحْيِي﴾ مَن يشاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ مَن يشاء، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنصركم على عَدُوِّكم، (فلِذا وَجَبَتْ طاعته والتوكل عليه وحده، وحَرُمَ تَعَلُّق القلب بغيرِهِ مِن سائر خَلقه).

الآية ١١٧: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة " تَبُوك" في شدة الحر والجوع والعطش، فلقد تاب سبحانه على هؤلاء المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾: أي مِن بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم إلى التكاسل عن الجهاد والتخلف عنه (وذلك لشدة الحال وصعوبة الموقف)، ولكنّ الله ثبَّتهم وقوَّاهم، ووفقهم للتوبة والرجوع عن ذلك.

♦ قال ابن عباس رضي الله عنهما – ما مُختصَره –: (كانت التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إذنه للمنافقين في القعود، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾؟، وكانت التوبة على المؤمنين مِن مَيل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه)، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي قَبِلَ سبحانه توبتهم بعد أن وفقهم إليها وأعانهم على الثبات عليها ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الآية ١١٨، والآية ١١٩: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾: يعني وكذلك تاب سبحانه على الثلاثة ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾: أي الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير عُذر – وهم كعب بن مالك وهلال بن أُميَّة ومُرَارة بن الربيع – فقد تأخر هؤلاء الثلاثة في توبتهم ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي حتى إذا ضاقت عليهم الأرض رغم اتِّساعها، وذلك بسبب هَجْر الناس لهم (حتى زوجاتهم)، وذلك بأمْرٍ من النبي صلى الله عليه وسلم حتى يَحكم الله فيهم، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: أي وضاقت صدورهم لِمَا أصابها من الحُزن والغمِّ بسبب تخلفهم عن الجهاد، ﴿وَظَنُّوا﴾ يعني وأيْقنوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ (فحينئذٍ تعلقتْ قلوبهم بخالقهم وحده، وظلوا على هذه الشِدَّة نَحْوَ خمسين ليلة)، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي أَذِنَ لهم بالتوبة ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي لِتَقَع منهم فيَقبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

♦ إذ التوبة مِن الله على العبد تتضمن إذنَهُ له بالتوبة، وأن يُوَفقه إلى فِعلها على الوجه الذي يحبه سبحانه، وأن يُعينه عليها ويُثبته، وأن يُكَرِّهَ إليه المعاصي ويُحَبِّبَ إليه الطاعات، ثم يَقبلها منه (فاللهم تُب علينا توبةً نَصوحاً تُرضيك عنا).

♦ واعلم أنّ هؤلاء الثلاثة لم يَعتذروا للنبي صلى الله عليه وسلم عن تخلفهم خوفاً من الكذب، فلَمَّا تابَ اللهُ عليهم: جعلهم مثلاً للصِدق، ودعا المؤمنين أن يكونوا مِثلهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في توبتهم ونيَّاتهم وأقوالهم وأعمالهم، لتكونوا معهم في جنات النعيم.

الآية ١٢٠: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ في أهلهم وديارهم ﴿عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾: أي ولا ينبغي أن يَرضوا لأنفسهم بالراحة والرسول في تعبٍ ومَشَقة؛ ﴿ذَلِكَ﴾ - أي نَهْي المؤمنين عن التخلف والراحة - ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في سَفرهم وجهادهم ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي عطش ولا تعب ولا جُوع ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: أي ولا يَترلون أرضًا من أرض العدو يَغتاظ الكفارُ لترولهم فيها، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾: أي ولا يُصيبون مِن عَدُوّ اللهِ قتلاً أو أَسْراً أو هزيمةً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (فلهذا لا ينبغي لهم أن يَتخلفوا حتى لا يَفوتهم هذا الأجر العظيم) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ١٢١: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيل الله، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في سَيْرِهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهاده (ذاهبين إلى العدو أو راجعين): ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أجْرُ عملهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة – على نفقتهم وتعبهم في جهادهم - ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بِمثل جزاء أحسن عمل كانوا يعملونه قبل خروجهم في سبيل الله.

الآية ١٢٢: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾: أي ما ينبغي للمؤمنين أن يَخرجوا جميعًا لقتال عدوِّهم، كما لا يَصِحّ لهم أن يقعدوا جميعًا، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾: يعني هَلاّ خَرَجَ مِن كل قبيلةٍ منهم جماعة واحدة تحصل بها الكفاية والمقصود، و﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ولِيَتعلم هؤلاء المجاهدون أحكام الدين من رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء جهادهم معه، ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ عَواقب الشِرك والمعاصي ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ من الجهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ عذابَ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه (فهذا خيرٌ للمسلمين مِن أن يَخرجوا جميعاً).

♦ واعلم أنّ هذه الآية قد نزلتْ عندما عَلِمَ المسلمون نتائج التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: (لن نتخلف بعد اليوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً)، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية يُرشدهم إلى ما هو خيرٌ لهم في دينهم ودُنياهم.

الآية ١٢٣: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام من الكفار، ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ يعني: ولْيَجِد الكفار ﴿فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وشدة، حتى تُدخِلوا بذلك الرعب في قلوب

المشركين في أنحاء الأرض، لِيَكُفوا عن شَرِّهم وفسادهم وتضعف قوتهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بنصره وتأييده، (ألاَ فاتقوهُ سبحانه لِينصركم على أعدائكم).

الآية ١٢٤، والآية ١٢٥: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ على الرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: فمِن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ - إنكارًا واستهزاءً -: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ باللهِ وآياته؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بتعلُّمِها وتَدبُّرها وتلاوتها والعمل بها، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي وهم يَفرحون بما أعطاهم اللهُ من الإيمان واليقين، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي نفاق وشك في دين الله ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي نفاقًا وشَكًّا إلى ما هم عليه من النفاق والشك، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي طبع اللهُ على قلوبهم حتى ماتوا على الكُفر عِياذاً باللهِ تعالى (اللهم ارزقنا حُسنَ الخاتمة).

الآية ١٢٦: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يعني: ألاَ يرى هؤلاء المنافقون أنّ اللهَ يَمتحنهم بالجهاد، ويَبتليهم بالفتن، ويَفضح نفاقهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾؟ ﴿ثُمَّ﴾ هُم مع ذلك ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ مِن كُفرهم ونفاقهم، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي ولا هم يَتعظون بما يُشاهدونه من آيات اللهِ تعالى، وبما يَرونه من تحقيق وَعْدِ اللهِ بالنصر للمسلمين على أعدائهم.

الآية ١٢٧: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي تغامَزَ المنافقون بالعيون (سُخريَةً بنزولها، وغيظًا مِمَا نزل فيها مِن ذِكْر عيوبهم وأفعالهم)، ثم يقولون لبعضهم: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ إنْ قمتم مِن عند محمد؟ فإنْ لم يَرَهم أحد: قاموا ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ مِن عِنده عليه الصلاة والسلام (خوفاً من الفضيحة)، فكانَ جزاؤهم أنْ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهدى، وذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي بسبب أنهم لا يريدون أن يَفهموا آيات القرآن ودلائله.

الآية ١٢٨: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي عَرَبِيٌّ مِن جِنسِكُم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي يَشُقّ عليه ما تَلقَوْنَ مِن المَكروه والمَشقة، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي حريصٌ على هِدايتكم وصَلاح شأنكم في الدنيا والآخرة، وهو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الآية ١٢٩: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: يعني فإن أعرض المشركون والمنافقون عن الإيمان بك - أيها الرسول - ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: أي يَكفيني سبحانه جميع ما أهمَّني، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبودَ بحق إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني عليه وحده اعتمدت، وإليه فَوَّضْتُ جميع أموري، فإنه ناصري ومُعيني ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

الفهرس

١. الربع الأول من سورة التوبة ٢
٢. الربع الثاني من سورة التوبة ٦
٣. الربع الثالث من سورة التوبة ١٠
٤. الربع الرابع من سورة التوبة ١٤
٥. الربع الخامس من سورة التوبة ١٧
٦. الربع السادس من سورة التوبة ٢١
٧. الربع السابع من سورة التوبة ٢٥
٨. الربع الأخير من سورة التوبة ٢٩